الفصل الثالث

الوضع السياسي لأهل الجزيرة

كان النظام القبلي هو النظام السائد في جزيرة العرب، فنجد فيه تحكم رؤساء القبائل وساداتها، فكل قبيلة تأتمر بأمر سيدها، وتخضع لإرادته في السلم وفي الحرب جميعاً، وكان لوعورة تضاريس الجزيرة العربية أثر كبير في تَعَذُّر قيام حكومة مركزية أو حاكم واحد يفرض النظام على كل أنحاء الجزيرة العربية، فكان النظام القبلي الذي عاشه العرب قبل الإسلام وليد بيئتهم،وبعبارة أخرى كان نظاماً فرضته البيئة على سكانها.

والفكر السياسي عند البدو يختلف عنه عند الحضر، فبينما عاش البدو في النظام القبلي استطاع الحضر أن يكونوا دولاً لها ملوك ونظم سياسية معينة، فالنظام القبلي كانت أغلبية العرب من البدو في نجد وتهامة والحجاز تسير عليه، ولا يُستثنَى من ذلك إلا مكة والإمارات العربية التي كانت على التُّخوم الشمالية واليمن. فمن المعروف أن عرب الجنوب أسسوا الدول القديمة التي أشهرها مَعِين وسَبَأ وحِمْيَر، أما عرب الشمال فلم تظهر بينهم دول مشابهة إلا في عصر متأخر، وذلك عندما استقرت قبائلهم على أطراف العراق والشام، ومن أشهر هذه الدول المناذرة والغساسنة.

وفي هذا الفصل سأتكلم بإيجاز عن أشهر الدول القديمة التي قامت في الجنوب وهي مَعِين وسَبأ وحِمْيَر، ثم عن أشهر الدول التي قامت في الشمال، وهي المناذرة والغساسنة، وبعد ذلك سأتحدث عن نظام الحكم في مكة، ثم عن النظام القبلي الذي كان سائداً عند القبائل في الجزيرة العربية.

وقامت في اليمن دول متحضرة منظمة ومن أشهرها:

١- **مملكة مَعين**: ١٢٠٠ق.م - ٨٠٠ق.م: ونشأت هذه المملكة في اليمن في الشمال الشرقي من صنعاء، والمعلومات عن هذه المملكة قليلة في الكتب العربية، وكل ما عرف عنها مَصْدَرُهُ التوراة وكذلك الآثار والنقوش التي كُشِفت حديثاً في جزيرة العرب، ويقال: إن هذه المملكة ظلّت قائمة حتى قامت دولة سبأ.

٢- **مملكة سبأ**: التي استمرت من القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد أيضاً، وقد قامت هذه المملكة في أواخر أيام مملكة مَعين على إثر ما أصاب الأخيرة من ضعف، فقد كانت سبأ فتية ناشئة في وقت كانت فيه مَعين قد ظهر عليها الهرم والضعف، وكانت عاصمتها مأرب،وفي القرآن الكريم ما يدل على ترف أهلها، قال تعالى: ﴿ **لقد كانَ لسبَأ في مَسْكَنِهِمْ آيةٌ جَنَّتانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُروا لَه بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وربٌّ غَفورٌ** ﴾ [سبأ: ١٥].

وترجع شهرة سبأ إلى أمرين: أولهما قصة ملكتها بَلْقيس مع النَّبيِّ سليمانَ والهدهد وقد وردت القصة في القرآن الكريم(١). وثانيهما سد مأرب فقد كانت الأمطار تهطل صيفاً على مرتفعات اليمن،ولا ينتفع بها في الشتاء وهو فصل الجفاف فيها، ولذا عمل المهندسون السبئيون على إيجاد نظام للرّيِّ يقوم على ادخار ماء الصيف للشتاء بإقامة ذلك السد، وذلك في منافذ الأودية لحجز الماء خلفها ليصرف بحساب عند الحاجة، فاتسعت بذلك أراضي الزراعة، وكثرت المحصولات الزراعية، وعمَّت الخيرات.

واشتهرت مملكة سبأ بالثروة والتقدم بين ممالك العالم في ذلك الحين، فكان لخصوبة أرضها واستقرار أهلها أثر في تقدمها، كما كانت لتجارتها الواسعة النطاق مع مصر والشام والعراق والحبشة والهند أثر كبير في تدفق الثروة عليها.

ولكن الضعف الذي نزل بالمملكة في أواخر أيامها شغلها عن رعاية السد،فبدأ يضعف، وقلت مقاومته للسيول الجارفة، فانهار أمامها وخاصّة أمام سيل العَرِم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **فأَعْرَضوا فأَرْسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ وبَدَّلْناهُم بجَنَّتَيْهِم جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل** ﴾[سبأ:١٦]. وقد حطم سيل العرم سد مأرب فأغرق البلاد، ثم هاجر كثير من السكان إلى الشمال وتفرقوا في أرجاء الجزيرة العربية.

٣- **مملكة حِمْيَر** ١١٥ق.م - ٥٠٠ م: وعلى أثر الضعف الذي انتاب مملكة سبأ بدأت قبائل حِمْيَر تكوِّن لها نفوذاً وسلطاناً في اليمن، وكان ذلك في المئة الثانية قبل الميلاد، فجمعوا شملهم وانتزعوا سلطان سبأ، وكَوَّنوا بذلك دولة يمنية ثالثة

---

(١) الآيات ٢٠ - ٤٤ من سورة النمل.

هي مملكة حِمْيَر، وتُسمّى كذلك دولة التّبابعَة، وكانت عاصمتها ظَفَار ثم صنعاء، وعرف عن هذه المملكة أنها كانت دولة زراعية وتجارية، إذ إنها اعتمدت على الآبار والسدود في ريّ الأراضي وزراعتها، وكذلك احتكرت التجارة بين الشرق والغرب.

ومن أشهر ملوك هذه الدولة ذُو نُواس الذي كان يدين بالمسيحية ثم تهوَّد واضطهد المسيحيين من أهل نَجْران، وعذبهم وأحرقهم، لعدم اعتناقهم اليهودية،وكان من نتيجة ذلك أن طلب إمبراطور دولة الرومان الشرقية من نجاشي الحبشة غزو اليمن، فقامت بحملة حربية على اليمن انتصاراً للمسيحية، فخضعت اليمن للأحباش، وسقطت مملكة حِمْيَر في قبضة أبرهة الأشرم قائد الأحباش المسيحيين في عصر ملكها ذي نواس وذلك في سنة ٥٢٥م.

وأبرهة الأشرم هو الذي بنى كنيسة عظيمة بصنعاء لصرف العرب عن الكعبة، محاولاً بذلك أن يدخل العرب جميعاً في النصرانية، ثم غزا مكة ليهدم الكعبة فأهلكه الله وقد صور القرآن الكريم ذلك في سورة الفيل.

ثم قام سيف بن ذي يزن اليمني،واستنجد بالفرس وحارب الأحباش، وأخرجهم من اليمن، ولكن الفرس استولوا على اليمن وظلوا فيها حتى ظهر الإسلام. وعندما بُعث الرسول ﷺ كان باذان حاكماً لصنعاء من قِبَلِ الفرس وقد دخل باذان في الإسلام عندما دُعي إليه.

وقد أقام العرب -في جاهليتهم-، ممالك في الشمال، وهي الأنباط وتدمر والمناذرة والغساسنة، وسبق أن ذكرنا أن عرب اليمن القدماء عندما ضعف شأنهم، وكسدت تجارتهم، وخربت مزارعهم، هاجر كثير منهم إلى الشمال، وهذه القبائل العربية اليمنية المهاجرة إلى الشمال استقرت في بادية الشام والعراق منذ عهد بعيد قبل الإسلام، وقد كوَّنت هناك دولاً أدت دوراً هاماً في تاريخ العرب وحضارتهم، ومن أشهرها مملكتا المناذرة والغساسنة، ففي منتصف القرن الثالث الميلادي قامت مملكتان عربيتان في أطراف البلاد العربية شمالاً إحداهما مملكة المناذرة بالحيرة، على تُخوم الفرس، والثانية مملكة الغساسنة في الشام على تُخوم الروم.

وكان قيام تينك المملكتين مظهراً للتنافس السياسي بين الفرس والروم، فاتخذ كلّ من الفرس والروم جماعة من العرب على حدودهم ليحموهم من الأعراب أولاً، ثم

ليصدوا عنهم غارات جارتهم المنافسة، فقامت مملكة الحيرة تحمي الفرس ويحميها الفرس، وقامت مملكة الغساسنة تحمي الروم ويحميها الروم، وقد أمد الفرس والروم تينك المملكتين بعون من المال والسلاح.

مملكة المناذرة:

وتسمى مملكة الحيرة وهي مملكة عربية هيأ الفرس لقيامها على حدود بلادهم قرب الكوفة حتى تحميهم من غارات العرب، ثم ليحاربوا بها أعداءهم الروم، وهم من قبيلة عربية من اليمن تسمى لَخْماً، وكان معهم كذلك بعض القبائل العربية الأخرى مثل تَنُوخَ.

وكان أردشير بن بَابكَ "قد وضع يده على هذه البلاد واستولى عليها ولاعتبارات خاصّة بالعرب أبقى على مملكة الحيرة، واكتفى بخضوع ملوكها له، لأنه رأى أن من المستحيل أن يحكم العرب مباشرة إلا إذا ملّك عليهم رجلاً عربياً منهم". "وكان النظام المتبع أن عرب الحيرة يقدمون الطاعة لملك فارس، وهو يولي عليهم أميراً من أنفسهم، وعليهم أن يحموا فارس من كلّ مُغِير من نواحيهم، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الإتاوة"(١).

ومن أشهر ملوك الحيرة عمرو بن عدي بن نصر اللخمي والمنذر بن ماء السماء وكذلك النعمان بن المنذر الذي مدحه النابغة ،وقد قتله كسرى وقامت من أجله موقعة"ذي قار" عام ٥٨٠ م التي انتصر فيها العرب على الفرس . فيقال: إن كسرى غضب على النعمان لأنه أَنِفَ أن يزوِّج بناته وأخواته من كسرى وأولاده، فتوعده كسرى وطلبه ولكن النعمان هرب ثم سَلَّم نفسه فألقاه كسرى في السجن حتى مات، ويقال: إنه رمى به تحت أقدام الفيلة فداسته ومزقته إرَباً.

ثم ولى كسرى على الحيرة بعد النعمان بن المنذر إياس بن قبيصة الطائي وفي هذا العهد قدم خالد بن الوليد وفتحها في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبذلك دخلت في حوزة الإسلام.

والحق أن أغلب ملوك الحيرة كانوا في استقلال داخلي، ومما لا شكّ فيه أن مملكة الحيرة قد تأثرت بحضارة الفرس وما يتصل بذلك من الثقافة والمعارف، وقد كان ملوك

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص١٦.

الحيرة مقصداً لشعراء العرب يشجعونهم ويجيزونهم بالمال الكثير مما كان له أثره في الأدب العربي.

يقول الأستاذ أحمد أمين: «وقد كان لعرب الحيرة وأمرائهم وتاريخهم أثر كبير في الأدب العربي والحياة العقلية للعرب عامة، فأحاديث جَذِيمَةَ الأبرش وأساطير الزَّبّاء، والخَوَرْنَق والسَّدِير والتغني بهما وبعظمتهما، والأقاصيص حول سِنِمَّارٍ باني الخورنق والأمثال التي ضربت فيه، ويوما النعمان: يوم نعيمه ويوم بؤسه، كل هذه وأمثالها شغلت جزءاً كبيراً من الأدب العربي»(١).

مملكة الغساسنة:

يرجع الغساسنة - أيضاً - إلى أصل يمني فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى أهمها جُذام وعَامِلَةُ وكَلْبٌ وقُضَاعَةُ، ويرى المؤرخون العرب أن الغساسنة يُنسَبُون إلى عمرو بن عامر مُزَيْقِيَاء الذي باع أملاكه في اليمن وهاجر منها قبيل سيل العَرِم، وأن ابنه جَفْنَةَ هو مؤسس هذه الأسرة، ولذلك يُسَمَّونَ آلَ جفنة وقد استقر أفراد هذه القبيلة حول بئر يقال لها: "غسان" فسموا بالغساسنة، ويقال إنهم خضعوا في الشام أول الأمر لعرب يدعون الضجاعمة(٢) ثم تغلبوا عليهم وأخذوا مكانهم تحت حماية الروم.

وقد أقام الغساسنة دولة في الشام كالتي أقامها اللخميون في الحيرة، ويظهر أنهم لم يتخذوا حاضرة بعينها، فأحياناً يفهم من قول الشعراء أن الجَوْلان أو الجابية حاضرتهم، وأحيانا يفهم أنها جِلِّقُ بالقرب من دمشق(٣) وقد شملت مملكتهم مقاطعتي حَوْرانَ والبلقاء في الشام، "وعلى العموم فتاريخ الغسانيين في الشام من الأمور الغامضة في تاريخ العرب، وإذا قارنا بين ما رواه المؤرخون عن أمراء الحيرة وما رووه عن الغسانيين وجدنا الأول واضحاً مفصلاً، والثاني ناقصاً متناقضاً"(٤). ومهما يكن من أمر فقد قامت مملكة الغساسنة، ووَجَدَتْ دولةُ الرومِ البيزنطية فيها درعاً

---

(١) فجر الإسلام ص١٨.

(٢) في القاموس: ضجعم -بوزن قنفذ وجعفر- أبو بطن، وهم الضجاعم والضجاعمة كانوا ملوكاً للشام.

(٣) في القاموس: أنها دمشق أو غوطتها.

(٤) فجر الإسلام ص١٨ وكلمة «قارنا» هنا خطأ والصواب: وازنا.

يحمي أطرافها الصحراوية من غارات القبائل العربية القادمة من قلب الجزيرة، وكذلك وجدت دولة الروم البيزنطية في هذه المملكة العربية عوناً لها في حروبها ضد الفرس الساسانيين، ولذلك كانت تصرف لأمرائها إعانة سنوية.

وأول من حكم من ملوكهم الحارث بن عَمرو وهو الحارث الأكبر وكنيته أبو شَمِّر وأما في القرن السادس الميلادي فقد بلغت مملكة الغساسنة أقصى قوتها واتساعها إذ قَدَّم أميرها "الحارث بن جَبَلَة" المعروف بالأعرج للدولة البيزنطية مساعدات وخدمات جليلة في حربها ضد الفرس الساسانيين، كما حارب اللخميين بالحيرة، إذ إنه قضى أكثر أيام حكمه في محاربة المنذر الثالث ابن ماء السماء أمير الحيرة، واشتبك معه في حروب طاحنة وفي سنة ٤٥٥م انتصر الحارث على ابن ماء السماء وقتله في موقعة"مرج حليمة" وقد ورد فيها المثل المشهور: "ما يَوْمُ حليمة بِسِرّ" وقد أعجب به "جوستنيان" إمبراطور البيزنطيين وعينه ملكاً، وجعل له السيادة على جميع القبائل العربية في الشام، ومنحه لقب "فيلارك" ومعناه :شيخ القبائل ولقب"بطريق" وهو أعلى لقب في الدولة البيزنطية، بعد الإمبراطور، وقد كان الحارث نصرانياً على مذهب اليعاقبة.

وخَلَفَ الحارثَ ابنُه المنذر سنة ٥٦٩م فواصل الحرب ضد اللخميين في الحيرة وانتصر عليهم في موقعة "عين أَبَاغ" كما أعان البيزنطيين في حروبهم ضد الفرس، وقد زار المنذر وولديه القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية بدعوة منها سنة ٥٨٠م فاستقبلوا استقبالاً حافلاً وألبسه الإمبراطور التاج إكراماً له،ويقال: إن العلاقة ما لبثت أن ساءت بين الغساسنة والبيزنطيين إذ خشي الإمبراطور على ممتلكاته من ازدياد نفوذ المنذر، وربما خافوا منه أن يثور عليهم فحرموه من الإعانات وقطعت المعونة السنوية عن الغساسنة، وبهذا انقلبت الصداقة بين الغساسنة والبيزنطيين إلى عداوة، ولكن البيزنطيين عادوا إلى مصالحته حتى حانت لهم الفرصة فقبضوا عليه ونفوه إلى جزيرة صقلية، ثم سعى البيزنطيون إلى تشتيت كلمة الغساسنة حتى انقسمت دولتهم إلى أقسام صغيرة ترأس على كل قسم منها أمير.

وفي بداية عصر "هرقل" إمبراطور الروم البيزنطيين استولى كسرى ملك الفرس على دمشق سنة ٦١٣م ثم بيت المقدس من سنة ٦١٤م فسقطت بذلك بلاد الشام البيزنطية في قبضة الفرس، ولم نعد نسمع عن أمراء غسان شيئاً حتى استرد هرقل

إمبراطور الروم بلاد الشام سنة ٦٢٨م، فأحيا الروم إمارة الغساسنة ولكنهم أبقوها ضعيفة.

ويذكر المؤرخون أن آخر ملوكهم هو جَبَلَة بن الأَيْهَم الذي أدرك الفتوح الإسلامية وحارب في صفوف الروم أول الأمر، ثم أسلم في عهد عمر بن الخطاب، وفي عهده فتح المسلمون بلاد الشام، وهزموا الروم في معركة اليرموك وغيرها من المعارك حيث فتحوا بيت المقدس. ويقال: إنه حين أسلم دخل المدينة في موكب حافل وكان يضع فوق رأسه تاج أجداده الذي تُزَيِّنه لؤلؤتان. ويروى أن جَبَلَة بن الأيهم غلبت عليه شقوته إِذْ إنه عاد وارتد في عهد عمر بن الخطاب وهرب إلى بيزنطة في قصة مشهورة.

وقد تأثرت مملكة الغساسنة بالحضارة الرومانية،وربما كان الغساسنة أقوى من المناذرة وأرقى منهم حضارة، وأخبارهم تدلّ على أنهم كانوا على حظّ وافر من الترف والنعيم، فقد أحاطوا بلاطهم بمظاهر الأبهة والعظمة،وعملوا على التشبه بالروم في حياتهم وشجعوا الفنون والموسيقى، وقد وصل حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم فقال: لقد رأيت عشر قيان، خَمْساً روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة، وكان الوافدون إليه من المغنيين العرب - يأتون من مكة وغيرها، وكان (جبلة) إذا جلس للشراب فُرِشَ تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين،وضُرِبَ له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأُتِيَ بالمسك الصحيح في صحاف الفضة. وأُوقِدَ له العود المُنَدَّى إن كان شاتياً، وإن كان صائفاً بُطِّن بالثلج وأُتي هو وأصحابه بُكساً صيفية، يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء كان يلبس فراء الفَنَك وما أشبهه. ولا والله ما جلست معه يوماً قطُّ إلا خلع عليَّ ثيابَهُ التي عليه في ذلك اليوم[١].

واشتهر الغساسنة بالكرم،وقد اجتذبوا إليهم الشعراء والأدباء من الجزيرة العربية، ومدحهم الشعراء كحسَّان بن ثابت والأعشى والنابغة وغيرهم، فمن شعر النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث أحد ملوك الغساسنة قصيدته البائية المشهورة وأولها:

---

(١) الأغاني جـ١٦ ص١٤ ساسي بتصرف والفنك -بالتحريك- دابة فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعدلها.

كليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكبِ

وفيها يقول يصف كتائب عمرو:

إذا ما غزا بالجيش حلَّقَ فوقَهُم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهُم بِهِنَّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ (١)

ويُروى أنَّ حسان بن ثابت مدح عمرو بن الحارث الغساني، وقد كان حسان ينزل به وبغيره من ملوك الغساسنة قال حسان: "قدمت على عمرو بن الحارث، فاعتاص الوصول إليه، فقلت للحاجب بعد مدة إن أَذِنْتَ لي عليه وإلا هجوتُ اليمنَ كلها ثم انقلبتُ عنكم، فأُذِنَ لي، فدخلت عليه، فوجدت عنده النابغة وهو جالس عن يمينه وعلقمة بن عَبدة وهو جالس عن يساره..."(٢) ثم قال قصيدة يمدحه، يقول فيها:

لله درُّ عصابةٍ نادمتُهُم يوماً بِجلِّقَ في الزمانِ الأوَّلِ

يمشون في الحُلَلِ المضاعفِ نَسجُها مَشْيَ الجمالِ إلى الجمالِ البُزَّلِ

الضاربونَ الكَبْشَ يَبْرُقَ بيضُهُ ضَرْباً يَطيحُ له بَنانُ المَفْصِلِ

والخالطون فقيرَهم بِغَنيِّهِم والمنعمون على الضَّعيفِ المُرْمِلِ

أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهِمُ قبرَ ابن ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ

يُغْشَون حتى ماتَهِرُّ كلابُهُم لا يسألون عن السَّوادِ المُقْبِلِ

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهم شُمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأولِ (٣)

فنرى أن حسان مدحهم بالشجاعة والكرم والجود وأن منازلهم لا تخلو من الأضياف وكذلك مدحهم بالشرف والأصالة،ويظهر أن اشتراكه معهم في الأصل اليمني قد شجعه على ذلك.

---

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت للبرقوقي ص٣٠٥.

(٢) المرجع السابق ص٣٠٥.

(٣) المرجع نفسه ص٣٠٨.

مكة المكرمة:

كانت مكة أشهر مدن الحجاز في العصر الجاهلي،وذلك لحسن موقعها الجغرافي عند منتصف الطريق التجاري بين اليمن والشام، ولقربها من البحر الأحمر،وكذلك لوجود الكعبة بها في وسط البيت العتيق الذي وَضَعَ قواعدَه سيدُنا إبراهيمُ وابنُه إسماعيل عليهما السلام، ليكون مركزاً للحج العربي السنوي قبل الإسلام، فكانت مكة مكاناً مقدَّساً عند العرب جميعاً، ومن هنا كانت السلطة في مكة متصلة بالسلطات في أنحاء الجزيرة العربية كلها، فكان العرب يتفقون على شيء يمكنهم من أداء فريضة الحَجّ في أمنٍ وسهولة، ولذلك اتفقت كلمة العرب على تحريم القتال في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يقصد فيها العربُ مكة حاجِّينَ أو مُعتَمِرين، وهذه الشهور هي : ذو القعْدة وذو الحجَّة والمُحَرم للحج ثم شهر رَجَب للعمرة. وكذلك اتفق العرب على تحريم القتال عند حَرَم مكة بصورة دائمة، وقرروا وأعلنوا أن من دخل الحَرَمَ كان آمناً، وبهذا كلّه كانت مكة أهم مدينة عربية في الجاهلية، فكانت مثابة للناس وأَمْناً.

وقد سبق الحديث أن إسماعيل عليه السلام نشأ بين أفراد قبيلة جُرْهُم اليمنية التي كانت تسكن مكة حينذاك، وأنه صاهرهم، وأنه ولد له هناك اثنا عشر ولداً تفرعت منهم بطون عديدة أشهرها بنو النضر بن كنانة أو فهر بن مالك الذي هو قريش. ثم تولى أبناء إسماعيل أمر البيت العتيق من بعده ومقاليد الحكم في مكة، لحماية الحجيج والسهر على مصلحتهم، ثم خلفهم ولاة من جُرْهُم، ثم ولاة من قبيلة خُزاعة اليمنية التي قدمت من اليمن وأجْلَتْ جُرْهُم عن مكة،وقد ظل الأمر بيد خُزاعة حتى ظهر قُصَيٌّ بن كلاب فانتقلت السلطات بذلك إلى قريش، وكانت قريش قد نزحت إلى مكة قبل ذلك، وقد ناصب قبيلةَ خزاعة قصيٌّ بن كلاب العداء حتى نجح في إخراجها من مكة في القرن الخامس الميلادي، فاستولت قريش على مقاليد الحكم فيها، ولا سيما حقّ الإشراف على البيت العتيق والحج العربي السنوي العام إلى الكعبة، وبذلك أصبحت أمور الكعبة كلها في يد قصيٍّ بن كلاب الجد الرابع للرسولﷺ.

يقول الأستاذ أحمد الشايب: " وفي مكة المكرمة أقامت قريش حكومة جمهورية ذات نظام استقراري ملحوظ، وذلك منذ ولي أمر الكعبة ووظائفها قصيٌّ بن كلاب في

منتصف القرن الخامس الميلادي، فكانت له الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والقيادة، ثم أمر قريشاً أن يبنوا حول الكعبة، وابتدأ هو فبني دار الندوة حيث يجتمع كبراء أهل مكة تحت إمرته للتشاور في أمور بلدهم،وقد تشعبت هذه الوظائف فيما بعد وتقاسمتها العشائر القرشية بعد خلاف كثير، إلا أن مكة امتازت مع ذلك بموقعها الجغرافي حيث تلتقي القوافل المتجهة إلى اليمن والحيرة والشام ونجد، كما كانت تتصل من البحر الأحمر القريب منها بتجارة العالم، وامتازت باجتماع الحاج في ساحاتها كلّ عام والتجار في أسواقها كثيراً، فكانت تجمع بين خصائص عديدة دينية وأدبية واجتماعية واقتصادية، لم تتوافر لغيرها من القبائل العربية، وقد وَفرَّ لها هذا الوضع نظاماً داخلياً مستقراً ومقدّساً وخاصَّة بعد حلف الفضول الذي عقدته قريش بعد حرب الفِجَار، وصارت مكة بذلك العاصمة المعترف بها في الجزيرة العربية(١).

وقد وضع قُصَيٌّ بن كلاب لمكة نظاماً إدارياً كفل لها الاستقرار السياسي والتقدّم بها في سبيل الوصول إلى مركز الزعامة على بلاد العرب كلّها قُبَيْل الإسلام، وقد جمع شتات القرشيين ووَحَّدَ كلمتَهم، وصار الرئيس الديني للبيت، وأنشأ داراً يؤدي بابها إلى الكعبة مباشرة وسماها "دار الندوة" إشارة إلى اجتماع زعماء قريش بها للتشاور والاتفاق على الخطط والمشروعات الواجب القيام بها، كما كانوا يعقدون بها أنكحتهم، ويفصلون فيها خصوماتهم.ولم يسمح قُصَيٌّ بدخول هذه الدار إلا لزعماء قريش وساداتها، ولمن بلغ منهم الأربعين من العمر، ولمن اشتهر منهم بالحكم وقول الصواب، وقد تولى قصيٌّ رياسة هذه الندوة ودأَبَ على عقد جلساتها للنظر في المصالح القرشية العامّة.

ثم رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها على الأوضاع التالية:

١- **الرِّفادَة**: وهي الطعام الذي يصنع للحجاج على سبيل الضيافة، ويقدّم لغير القادمين من الحجاج وغيرهم ممن يهبطون مكة، وقد فرض ضريبة سنوية على قريش لهذا الغرض، وسميت بذلك لأن قريشاً ترافدت بهذه الضريبة ، أي: تعاونت على إخراج مال فيما بينها لتشتري به الطعام للحجاج. ويُروى أن قُصَيّاً حين فرضها على قريش قال: "يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته،وأهل

---

(١) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ص٧٠ بتصرف.

الحرم، وإن الحاج ضيف الله، وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج،حتى يصدروا عنكم، ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خَرْجاً، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاماً للناس أيام مِنَى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام"(١).

٢-**السّقاية**: وهي تدبير الماء من آبار مكة المجاورة ووضعه في حياض يملؤُونها بالماء ويحلونها بشيء من التمر والزبيب ليشرب منها الحجاج.

٣-**الحجابة**: أو السَّدَانة وهي حراسة الكعبة وخدمتها وحفظ مفاتيحها، فلا يفتحها إلا هو،ولا تبتدئ الشعائر الدينية رسمياً إلا بإذنه.

٤-**اللواء**: وهو الدعوة إلى الحرب فلا تُعْقَد رايةُ الحربِ إلا بإذنه.

وهكذا جمع قصيٌّ بن كلاب في شخصه كلَّ الوظائف الرئيسة في أهل مكة، مدنية كانت أو دينيَّة، وجعل لقبيلة قريش مجداً وزعامة على سائر العرب. وقد برهنت الحوادث على أن تنظيمات الزعيم قصيٍّ على الرغم من يَسارَتها قد اشتملت على روح تعاونية جعلت زعماء قريش جميعاً يقدمون المصالح العامّة على مصالحهم الشخصيّة،وهذه التنظيمات هي أهم ما كان من أحوال بلاد العرب السياسية قبل الإسلام.

ثم انتقلت السلطة بعد قصيّ بن كلاب إلى ابنه عبد الدار لكبر سنه،مع أن عبد مناف بن قصي كان أعظم منه ذِكْراً وأعلى شَأْناً، ولذلك اتفق بنو عبد مناف بن قصي وهم عبد شمس وهاشم والمطَّلِب ونوفل مجمعين(٢) على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصيّ مما كان قصيّ جعله إلى عبدالدار من الرِّفادة والسِّقاية والحجابة واللواء ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم، وفضلهم في قومهم،فتفرقت قريش والقبائل العربية عند ذلك، فانضم بعضهم إلى أبناء عبد مناف وانضم آخرون إلى أبناء عبد الدار، وكادت أن تقع بينهم حرب طاحنة لولا نجاح بعض المساعي التي قسمت وظائف الكعبة فيما بينهم، "فبينا الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح، على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة

---

(١) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص٥٠.

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص٦١.

واللواء والندوة لبني عبد الدار كما كانت، ففعلوا ورضي كلّ واحد من الفريقين بذلك، وتحاجز الناس عن الحرب،وثبت كلّ قوم مع من حالفوه فلم يزالوا على ذلك، حتى جاء الله تعالى بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «ما كان من حلف في الجاهلية،فإن الإسلام لم يزده إلا شدة»"(١).

وقد تولى هاشم بن عبد مناف حينذاك السقاية والرفادة، وتولاها بعده أخوه المطلب بن عبد مناف وكان أصغر من عبد شمس وهاشم، ثم تولى السقاية والرفادة عبد المطلب بن هاشم بعد عمه المطلب(٢)، وكان عبد المطلب قد عَزَّ شأنُه وذاع صيتُه،وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، فقد أحبّه قومه، وعَظُم خطره فيهم، وأصبح مرجع كلّ الأمور في مكة، وفي عهده حاول أبرهة الأشرم الحبشيُّ هدم الكعبة، وروي أن عبد المطلب استغاث بالله، وأخبر قريشاً بالخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شَعَف الجبال والشِّعاب،خوفاً عليهم من مَعَرَّة الحبش، ثم قام فأخذ بحَلْقَة باب الكعبة،وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنوده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إنَّ العبدَ يمنَعُ ... رَحْلَهُ فامْنَعْ رِحالَكْ

وانصُرْ على آلِ الصَّليـ ... ـبِ وعابديه اليومَ آلَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صليبُهُم ... ومِحالُهُمْ غَدْواً مِحالَكْ(٣)

فاستجاب الله لدعائه، وأهلك أبرهة وجنوده كما صور القرآن الكريم ذلك في سورة الفيل.

واشتهرت قريش بالتجارة، وكانت تجارتهم أول الأمر لا تعدو مكة، فكان الأعاجم يأتونهم بالسلع فيشترونها منهم، ثم يبتاعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب(٤). وظلوا كذلك حتى قام بنو عبد مناف برحلات إلى الشام واليمن والحبشة وفارس، لأخذ العهود من ملوكها وتأمين السبل لقريش في تجارتها الخارجية.فركب

---

(١) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص٦٢.

(٢) المرجع نفسه جـ ٢ ص٩٥.

(٣) المرجع نفسه جـ ١ ص٢٦٢.

(٤) كتاب النوادر لأبي علي القالي ص١٩٩.

هاشم بن عبد مناف إلى الشام ونزل بقيصر فأعطاه كتابَ أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب فصار كلمَّا مَرَّ بحَيٍّ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافـاً[1] وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تَجَرَ إليهم من قريش كما أخذ منهم الإيلاف، ثم خرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافاً كأخويه، وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه إلى بلاد فارس، فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مَرَّ به من العرب[2].

فاتسعت بذلك تجارة قريش في الجاهلية وكثرت أموالها،وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد في ذمّة هؤلاء الأخوة الأربعة، لا يتعرض لهم أحد يسوء ، لأنهم أهل بيت الله وحُماته،وكان لهم رحلتان، رحلة إلى اليمن في الشتاء ورحلة إلى الشام في الصيف، ويتضح كذلك أن أبناء عبد مناف كانوا أعظم قريش مُنَّةً[3] في الجاهلية والإسلام قال الشاعر:

يا أيّها الرجلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ ... هلا نزلتَ بآلِ عبد مناف

الآخذونَ العهدَ من آفاقِها ... والراحلون لرحلة الإيلافِ

والخالطون غَنيَّهم بفقيرِهم ... حتى يكون فقيرُهم كالكافي

ومما لا شك فيه أن القرشيين كان لثرائهم في التجارة، ولاتصالهم بالأمم المتحضرة كالفرس والروم، ثم لنضوج عقليتهم وثقافتهم وتفكيرهم أثر كبير في أنهم كانوا يحكمون مكة حكماً أدق وأنضج من النظام القبلي الذي كان سائداً عند القبائل العربية في البادية.

النظام القبلي:

كان النظام القبلي سائداً عند العرب في البادية، فلم تكن هناك حكومة مركزية أو حاكم واحد يفرض النظام على الجزيرة العربية، فكان النظام القبلي الذي عاشه العرب قبلَ الإسلام وليد بيئتهم، وبعبارة أدق كان نظاماً فرضته البيئة على سكانها.

---

(١) الإيلاف: أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو أمان الطريق.

(٢) انظر كتاب النوادر لأبي علي القالي ص١٩٩.

(٣) المنة – بضم أولها: القوة.

فكانت القبيلة هي الوحدة التي بُنيت عليها حياتُهم، وكان لكلّ قبيلة مجلس يضم شيوخ عشائرها، وكانوا يجتمعون وينظرون في شؤون القبيلة، ويناقشون القضايا التي تهمها، وكان اجتماعهم كلما حَزَبَ أمرٌ أو ظهرَ ما يدعو إلى الاجتماع، فيتناقشون ويتبادلون الآراء، وقد يخطبون أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم. وكان لكلّ مجلس رئيس هو شيخ القبيلة، وهو شخصية فذّة أحكمتها التجارب يختارها الجميع ليكون المعبر عنهم والمتكلم بلسانهم، ويمتاز بالحكمة وسداد الرأي، وسعة الثروة، كما يتصف بالشجاعة والكرم،والفصاحة واللَّسَن والوقار والهيبة، ثم لا بد أن يكون أوسعهم صدراً، وأرجحهم عقلاً، وهذه الصفات كانت كافية لسيادته على القبيلة التي تأتمر بأمره، فتقيم بإقامته وترحل برحيله،ولا تتأخر عن الحرب لنصرته.

وكانت رياسة القبيلة غالباً من أفراد البيوتات التي عرفت بالرياسة والشرف، فقد كان في كثير من القبائل العربية في الجاهلية بيوتات عرفت بالرياسة والشرف، وامتازت عن سائر القبيلة، كبيت هاشم بن عبد مناف من قريش، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزاري من قيس عَيْلان، وبيت آل زرارة بن عدي من تميم.

والحقّ أن رياسة القبيلة كانت تحتاج إلى صفات كثيرة في شيخها، يطمئن إليها أفراد القبيلة، حتى يسلموا قيادهم وزمام أمرهم إليه، فلا بدّ من أن يكون ألمعيّاً فطناً حكيماً، حليماً خطيباً كريماً، أما واجباته فكانت كثيرة، فهو الذي يعقد الأحلافَ والصلح مع القبائل الأخرى، ويقود قومه في حروبهم، كما أنه يستقبل الوفود ويقري الضيفان وما إلى ذلك.

وكان أفراد القبيلة يحبّون قبيلتهم وينصرونها،ويتفانون في خدمتها وإخلاصهم لها، ويعملون على رفع شأنها، وإعلاء كلمتها بين القبائل الأخرى، وكانوا يهبون لنصرة كلّ فرد منهم ظالماً كان أو مظلوماً، مدافعين عن حقوقها وشرفها، لا سيما حقّ الأخذ بالثأر ممن اعتدَى عليهم من القبائل الأخرى، فكان كلّ فرد على استعداد لأن يضحي بنفسه وبمالِه في سبيل ذلك، لأن قبيلته تمثل حياته وكيانه،وهو مع اعتزازه بشخصيته وحريته يعيش في إطار قبيلته ، ويتمسك بعصبيتها، تلك العصبية التي سيطرت على نفوسهم حتى قدسوها.

وكانت الرابطة بين أفراد القبيلة تقوم على العصبية والتضامن ، والتناصر والتعاون حتى إن الواحد منهم كان يفنى في قبيلته يَغْوِي إذا غَوَتْ ويَرْشَد إذا رَشَدَتْ كقول دُرَيْد بن الصِّمَّة :

وهل أنا إلا من غَـزِيَّةَ إن غَـوَتْ غَـوَيْتُ وإنْ تَرشُدْ غَـزِيَّةُ أَرْشُدِ (١)

وكانت القبيلة من جانبها ترعى أبناءَها وترى أن لهم عليها الحقوق نفسها، فهي تحمي كلَّ فرد من العدوان،وتطالب بدمه وتثأر له إن جنى عليه أحد، فلا يذهب دمُه هَدَراً، وكانت القبيلة لا تتدخل في حرية أفرادها إلا إذا وقع من أحدهم ما يخُشَى منه على سلامتها.

على أن كل قبيلة كانت بمثابة دولة مستقلة لها كيانها الخاص، فشعبها يتكون من أفرادها وأبنائها، وكان لها وطنها وحرمها الذي تحافظ عليه، وتدافع عنه وتحميه بكلّ ما أوتيت من قوّة، ولذلك كانوا يدعونه "الحِمَى" لأنه يشتمل على الأرض التي يقوم عليها مَضارِبُ القبيلة، ومناطق الكلأ التي ترعى فيها دوابها.

يقول الأستاذ أحمد الشايب : " إن القبيلة العربية كانت صورة مصغرة للدولة العامة فيها خواصّها الرئيسيّة(٢) فلو ذهبنا نطبق نظريات أصول الدولة وهي الطبيعة، والأسرة،والعقد الاجتماعي، والقوة،والإرادة لاستطعنا أن نجد مظاهرها في بناء القبيلة الجاهلية بشكل ما"(٣).

وكانت القبيلة تعتمد على كثرة أفرادها في قوتها وحياتها وشرفها وهيبتها، لذلك اشتد تعلق القبيلة بأفرادها، كما اشتد تعلق الفرد بقبيلته، وهذا يبين مدى قوة العصبية التي كانت عندهم، قوة العصبية للدم والقرابة، حيث وقف الفرد بجانب أخيه من قبيلته في جميع الأحوال ظالماً كان أو مظلوماً، فالحقّ أنه لا يوجد شعب من الشعوب يفوق الشعب العربي في تمسكه بعصبيته وتقديم صلة الرحم على غيرها من الصلات. وقد كان كثير من القبائل العربية في الجاهلية يمثل كثرة في عدد الرجال، لأن القبيلة الواحدة كانت كثيرة الفروع والبطون والعشائر.

---

(١) غزية قبيلة من هوازن وهي رهط الشاعر.

(٢) كذا والصواب: الرئيسة.

(٣) تاريخ الشعر السياسي للأستاذ أحمد الشايب ص٣٤.

وكان لكلّ قبيلة شاعر أو شعراء يسجلون مفاخرها ومجدها وشرفها وفضلها، وكان الشاعر، "يضع فنه قبل كلّ شيء في خدمة فخره بنفسه، واعتزازه بمجد قبيلته، وهكذا نشأ من الهجاء شعر الفخر الذي هو ضده، والذي أمكن أن يكتسب في بعض الأحيان أهمية سياسية، كما في مُعَلَّقَتَيْ : الحارث بن حِلِّزَة وعَمرو بن كُلثوم، وقد دافع الأول عن قبيلته ما وجه إليها الأعداءُ من تُهم، عند عمرو بن هند ملك الحيرة، على حين عارضه الثاني مواجهاً الملك نفسه في إباءٍ وعناد، ومحذراً له ولقبيلته بكر بن وائل من العدوان على قبيلته تغلب، مع إشادته بقوة هذه القبيلة وعظمتها"(١).

وتظل القبيلة متمسكة بكلّ فرد من أفرادها، تحافظ عليه وترعاه،ما دام يسير تحت توجيهاتها، وحسب إرشاداتها، فإذا ما خالف ذلك أو سلك طريقاً لا ترضى عنه قبيلته، طردته منها،وخلعته عنها وسمي "خليعاً، وقد كثر هناك الخلعاء من شتى القبائل، وكثيراً ما هددوا الأمن، فخرجوا على قبائلهم،وتحلّلوا من نظمها،وجردوا أنفسهم للإغارة والنهب وقطع الطرق، وسلب الأفراد بل القبائل كذلك. يقول الدكتور جواد علي: "وقد يتكتل هؤلاء الخلعاء ويجتمعون مع الصعاليك، فيؤلفون عصابات خطيرة، تعيش على السلب والنهب وقطع الطرق لكسب الرزق، فتلقي الرعب في النفوس، وتنعم بما في يديها من مال حرام تبدده وتبذره على عادة الشذاذ من الناس، ومن يحصل على قوته بهذه الطرق. ولعدم مبالاة هؤلاء وشجاعتهم، وعدم اهتمامهم بالحياة استُخْدِم بعضُهم في أعمال انتقامية مثل الفتك بالخصوم"(٢).

وكان لوجود النظام القبلي عند العرب، وانتشار الفوضى وتهديد الأمن والنظام في كثير من الأحيان، أن قام هناك اتحادات بين القبائل تُعرف بالأحلاف، فتقوم القبيلة بالتحالف مع قبيلة أو قبائل أخرى، فيكون أفراد هذا الحلف وإن اختلفت قبائلهم متضامنين،ينصر بعضهم بعضاً، كأنهم من دم واحد، فلا يعتدي أحد منهم على الآخر، بل يقفون يداً واحدة على مَن سِواهم، فكأنهم قبيلة واحدة، يقول البكري: "فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع، وغلبة بعضهم بعضاً

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان جـ ١ ص١٥٦.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي جـ ٤ ص٢٢٤ – المجمع العلمي العراقي.

على البلاد والمعاش، واستضعاف القوي الضعيف، انضم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم، وانتشر كل قوم في ما يليهم"[1].

ومن الأحلاف المشهورة في مكة "حلف المُطَيَّبِينَ" وفيه تحالف بنو عبد مناف وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث ضد بني عبد الدار وأحلافهم، فيقال: إنهم غمسوا أيديهم في جفنةٍ مملوءة طيباً عند الكعبة، حيث تعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسموا المُطَيَّبِين[2].

وأكرم من هذا الحلف "حِلْفُ الفُضُولِ" الذي تحالفت فيه قبائل من قريش وقطعت فيه على نفسها عهداً على ألا يجدوا مظلوماً يقيم في مكة أو يلجأ إليها من جهة أخرى إلا قاموا معه حتى ترد عنه مظلمته.

ومن أحلاف العرب المشهورة، "حلف الرِّباب"[3] وهم خمس قبائل: ضَبَّةُ وثَوْرٌ وعُكْلٌ وَتَيْمٌ وعَدِيٌّ وكذلك حلف عبس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تميم وأسد، وما إلى ذلك من الأحلاف.

وكانت العلاقة بين القبائل الجاهلية تقوم غالباً على العداوة والتربص، وانتهاز الفرص والتنافس، كما يقع ذلك بين الدول في كل العصور، وهذا الصراع الذي يقع بين الدول الحديثة ما هو إلا صورة لما كان يقع بين القبائل البدوية القديمة، كما قال الأستاذ أحمد الشايب: " إن الصلات بين القبائل كانت قائمة على التنافس والتربص، وانتهاز الفرص للظفر بمال أو شرف، وهذا هو ما نراه بين الدول في كل العصور، فهو تنافس في السيادة والاستعمار وكسب الأسواق التجارية ومناطق المواد الأولية، وليس الصراع بين الدول الحديثة إلا صورة لما كان بين القبائل البدوية القديمة، فالأسباب واحدة وإن اختلفت الوسائل واتسعت الميادين.

وهذا التنافس بين القبائل الجاهلية يرجع إلى عاملين رئيسين ماديٍّ وأدبيٍّ، فهو إما طمع في إبلٍ أو مرعى أو بئر أو فرس أو متاع ما، وإما رغبة في رياسةٍ، أو أخذٍ بثأرٍ، أو

---

(١) معجم ما استعجم للبكري جـ ١ ص٥٣ (طبعة السقا).

(٢) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص٦١ وفي القاموس: المُطَيَّبِين.

(٣) الرباب - بكسر أوله كالربابة: العهد.

اعتزازٍ بنفس أو مفاخرةٍ بقوة، أو غضبٍ لجار أُهين، أو عهدٍ نُقِضَ، أو مجاراةٍ لسفيه"(١).

ولذلك كثرت حوادث الصراع والحروب بين القبائل البدوية، لا سيما حول امتلاك ينابيع المياه ومناطق الكلأ وهي مصدر الحياة لهم، وكذلك في حوادث الأخذ بالثأر.

وتعرف حوادث الصراع بين القبائل العربية في الجاهلية باسم "أيام العرب" التي من أشهرها "حرب البَسُوس" بين قبيلتي بكر وتغلب، ومن أسبابها أن كُلَيباً شيخ بني تغلب جرح ناقةً للبسوس عمة جساس بن مُرَّة الذي كان شيخاً لبني بكر فقتل جساسٌ كُليباً غدراً من باب الثأر لكرامة البسوس، ثم اشتعلت الحرب بين الفريقين زمناً طويلاً حتى انتهت بتوسط المنذر الثالث ملك الحيرة، الذي عقد صلحاً بين الفريقين، فحقن بذلك الدماء العربية، إلى غير ذلك من الأيام التي كانت كثيرة في الجاهلية.

على أن النظام القبلي لم يكن محصوراً في البادية فقط، وإنما كان في المدن أيضاً بين أهل الحضر، فلذلك كان هو النظامَ السائدَ في الجزيرة العربية، وقد سبق أن قلت: إنه كان لوعورة تضاريس الجزيرة العربية أثرٌ كبير في تعذر قيام حكومة مركزية أو حاكم واحد يفرض النظام على كل أنحائها" . ولكن، على الرغم من تشتت العرب السياسي في الظاهر ربطت بينهم قبل الإسلام وحدة معينة في أفكار الديانة والعادات وجعلت منهم أمة واحدة"(٢).

والواقع أن النظام القبلي هو خير نموذج للحياة السياسية في البادية إذ كان هذا النظام وليد بيئتهم، وبعبارة أخرى كان نظاماً فرضته البيئة على سكانها.

---

(١) تاريخ الشعر السياسي ص٤٥ . وفي الأصل رئيسيين وهو خطأ شائع.

(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان جـ ١ ص٤٢ .